

مظاهر القطيعة الإبستمولوجية بين الحضارتين الإسلامية والغربية

- الترجمة الاستشراقية لمعاني القرآن أنموذجا -

Manifestations of the epistemological rupture

Between Islamic and Western civilizations

-Orientalist translation of the meanings of the Qur'an

As an example-

د. عصام عبدوس*

جامعة محمد الأول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - وجدة، (المغرب)

abdousissam@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/02/07 تاريخ القبول: 2024/03/18 تاريخ النشر: 2024/06/30

ملخص:

تعد ترجمة معاني القرآن من أهم الموضوعات التي شغلت بال المستشرقين، حيث تعددت المدارس الاستشراقية على امتداد القارة الأوروبية، واتحدت أهدافها حول دراسة تراث الشرق ومحاولة فهمه وتمحيصه، وإذا كان القرآن هو مدار هذا التراث فقد انبرى المستشرقون لترجمة معانيه، مع ما صاحب ذلك من مغالطات أسهمت فيها عُدتهم المعرفية الهزيلة حول لغة القرآن، أضف إلى ذلك تقصُّدهم خلق انفصام بين الثقافتين الإسلامية والغربية، الشيء الذي عرقل مساعي الحوار والتعايش ومعرفة الآخر من لدن الفرد الأوروبي اتجاه نظيره المسلم، وللتغلب على معضلة صراع الحضارات، لا بد من تصحيح المغالطات التي أوجدتها الترجمات الاستشراقية في حق القرآن ومعتنقيه.

حاول الباحث أعمال المنهج التحليلي الوصفي، قصد إمطة اللثام عن منهج المستشرقين في علاقتهم بالشرق، وخلص إلى ضرورة خلق جو من الحوار والتعايش. الكلمات المفتاحية: القرآن، الترجمة، الاستشراق.

* المؤلف المرسل.

Abstract

Orientalists have been preoccupied by the Quran translation. This process is tough and daunting as there is variety of oriental schools throughout Europe. The objective is to study Eastern heritage as the Quran is the orbit of this heritage. Orientalists have delved into the translation of its meaning though most of these translations have been accompanied by fallacies. They are meant to create a schism between Islamic and western culture which hindered dialogue and coexistence of Muslims and their counterparts.

In order to overcome the dilemma of the clash between civilizations, the fallacies made by Orientalist translations regarding the Qur'an and Muslims must be corrected.

The researcher employed the descriptive and analytical method, with the aim of shedding light on the crime committed by Orientalist translations, and concluded with the necessity of creating an atmosphere of dialogue between cultures based on equality and partnership.

Key words: Quran, Translation, Orientalism.

1. مقدمة:

لا يخفى على أذهان كل المشتغلين بالعلوم الإنسانية والمهتمين بشأن التعايش وفهم الآخر، أن الترجمة وما تتيحه من آليات ومقومات لفهم الآخر المشترك معنا في الإنسانية والمخالف لنا في الدين والثقافة، أضحت ضرورية ومركزية في تقريب المغاير وفهمه فهما دقيقا وصحيحا بعيدا عن التأويلات والتعسفات المبنية على الأحكام المسبقة، كما لا يخفى أن أسس الإنسان في شموليته أسس دينية ومنطقاته عقدية وهو أمر بدهي لما يشكله الدين من أهمية لدى المجتمعات الإنسانية.

من هذا المنطلق ظهر واتسع اشتغال الباحثين بترجمة النصوص الدينية بجميع أنواعها خاصة تلك المتعلقة بالنصوص المقدسة في كل من اليهودية والمسيحية والإسلام، ولعل أبرز تيار تبني هذا الطرح في علاقته بالنص الديني الإسلامي هو التيار الاستشراقي، الذي تناوله بنفس قذحي مبطن لا يهدف إلى معرفة الآخر بقدر ما يهدف إلى التنقيص من تراثه والطعن فيه -باستثناء بعض المنصفين-، وهو أمر أسهم في إذكاء طرح المواجهة عوض المهادنة.

إن التنقيب في فكر الآخر من شأنه أن يبني مشروعا فكريا منفتحاً بعدما ظلت الأفكار حبيسة الفكر المتعصب، الذي غالبا ما كان يتعامل مع الذات والآخر بفهم مجزأ لا يراعي شمولية المعرفة الإنسانية ولا أسس الاجتماع البشري، مثلما نهج الاستشراق السلبي في تعامله مع القرآن الكريم، إذ من المستحيل ونحن في أوج الدعوة إلى التقارب سواء على صعيد الدول أو على صعيد المجتمعات أن نتجاهل نصوص الثقافات الأخرى المقدسة، ولا يخفى الدور الكبير لعملية الترجمة في تكوين الثقافات صورتها على مر التاريخ، ولا جدال أن فهم الغير مقترن بمدى تمرس المترجم وأهليته، وذلك لكون الترجمة الدينية أصعب أنواع الترجمات لارتباطها بمواضيع ذات طابع مختلف عن غيرها، ومن الجدير بالذكر كذلك أن ترجمة المفاهيم والمصطلحات تكتسي الأهمية القصوى، وذلك لضرورة الأخذ بعين الاعتبار المعجم اللغوي والثقافي للغة المنقول إليها، وذلك شرط رئيس في تحديد المصطلح المراد، ويزيد الحرص في هذا الصدد أكثر عندما يتعلق الأمر بالمفهوم الديني، وهو الأمر الذي لم يفلح فيه المستشرقون حيث أنهم في كثير من المرات كانوا يضيفون مصطلحات بعيدة عن سياق النص أو يترجمون كلمات أخرى بغير المقصود منها.

إن العلاقة الناظمة للمجموعات البشرية على نوعين، إما أن يسودها التعايش والتفاهم وهو الذي تسعى خلاله الجماعات إلى فهم الآخر والاقتراب منه والإفادة مما لديه من معارف وأفكار، وإما أن يسودها الخصام والكيل بمكيال العداء وهنا تبرز ضرورة الحوار والتفاهم من أجل تحقيق السلام ورفض العنف، وهذا يستدعي بالضرورة وجود ترجمة قوامها الاعتراف بوجود الآخر واحترامه، والاعتراف بأن للآخر مسلمات قد لا تكون جميعها على وزن واحد من الضعف والتهافت، بقدر ما قد تتضمنه من عناصر يشترك فيها الجميع ويتقاسم الإيمان بها الكل.

من الأخطاء الشائعة الاعتقاد أن الترجمة عملية سهلة، لا تتجاوز كونها أداة لنقل المعاني بين النصين المختلفين أو من اللغة الأولى إلى اللغة الثانية المترجم إليها، في حين أن الأصح هو التعامل مع الترجمة أثناء نقل المعرفة، بما تقتضيه الوظيفة التواصلية في النص المصدر في سياقه الحضاري، وهذا ينسحب على الإطار العام لفهم التركيبة الذهنية للآخر بعيدا عن فهم محيطه وروافد المعرفة لديه، فالترجمة لا يجب أن تكون مجرد استبدال لفظ مكان لفظ، الأمر الذي قد يبعد الباحث والمتلقي عن فهم حقائق الحضارات المختلفة والأمم المتباينة والألسنة المتعددة، ويفضي إلى عدم الإفادة من تفاعل الحضارات وغزارة إنتاجها طيلة أطوار تشكلها عبر الزمن.

من خلال هذا المقال سأحاول توضيح العلاقة القائمة بين فعل الترجمة كممارسة عملية يقوم بها المستشرقون وبين الآخر-المسلم- باعتباره جزء من النسق الفكري المترجم، ودور هذا النوع من الترجمات في تكريس القطيعة بين الحضارتين الإسلامية والغربية، هذا ويبقى لزاما عليّ إعطاء تصور لحوار الحضارات كمنطق منادى به ومطروح بقوة في الساحة الدولية.

2. نماذج من ترجمات المستشرقين لمعاني القرآن الكريم.

تعددت وتشعبت المدارس الاستشراقية على امتداد القارة الأوروبية بكاملها وعرفت هذه المدارس في أحيان كثيرة اختلافات ومناهج مميزة إحداها عن الأخرى، لكن ما طبعها هو الاحتفاظ بالمشارك العام للعملية الاستشراقية ألا وهو دراسة تراث الشرق وتمحيصه، وتنوعت الجهود في ذلك حيث "قام المستشرقون الفرنسيون بتصنيف عدة كتب في شتى فنون الأدب والعلم والمعرفة، كما نشروا وحققوا بعض المخطوطات القديمة، وانصب اهتمامهم أولاً على دراسة القرآن وترجمته وحوادث السيرة النبوية والحديث. ومن أهم ما قاموا به في هذا الصدد ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية، حيث ظهرت أول ترجمة سنة 1647م على يد دي ريو RYER dy (1580-...)، وتلتها بعد 136 سنة ترجمة كلود إتيان سافاري cloud-étienne SAVARY (1750-1788) سنة 1783 م وترجمة بيبشتاين كازيميرسكي Biberstein KASIMIRSKI (1780-1865) سنة 1840 م ... ولم تقف جهودهم في هذا المجال عند حدود الترجمة فحسب، بل واصلوا التأليف في موضوعات قرآنية ذات أهمية قصوى مثل كتاب "توافق القرآن والإنجيل" لغيوم بوستيل guillaume POSTEL (1510-1581) سنة 1543م، وكتاب "سورة فاتحة الكتاب" ل إفرست لافي بروفنسال évariste LÉVÉ-PROVENCAL (1894-1956) سنة 1920م، وكتاب "القرآن والخلق" ترجمة وتعليقا على مختارات لإخوان الصفا لماركة سنة 1964م¹، ناهيك عن أعمال أخرى جعلت من القرآن محور اشتغالها.

يحتل القرآن مركز القلب في جسد الديانة الإسلامية ومنطق تفكيرها ودافع نهضتها، لذلك "كان القرآن الكريم على رأس الموضوعات التي شغلت بال المستشرقين وتفكيرهم منذ اللحظات الأولى للاتصال الثقافي والفكري ما بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، ولأرب في هذا، فالقرآن هو الأساس الذي تقوم عليه العقيدة الدينية والشريعة الإسلامية، وبالنسبة للمسلمين هو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه"².

¹ نقلا عن: أحمد نصري، آراء المستشرقين 1-248 p., victor chauvin, bibliographie des ouvrages arabes, v.x.

الفرنسيين في القرآن الكريم -دراسة نقدية-، ص 33.

² مشتاق بشير الغزالي، القرآن الكريم في دراسات المستشرقين دراسة في تاريخ القرآن: نزوله وتدوينه وجمعه، ص 36.

تاريخيا ترجع جذور هذا النفس الاستشراقي التضليلي إلى المركزية التي يحتلها الشرق والمدينة المقدسة (القدس) في وجدان المسيحيين حيث "كانت ترجمة القرآن الكريم من خيوط المخطط الذي بدأه الغرب المسيحي بعد الحرب الصليبية تحقيقا لوصية لويس التاسع.

وفي محاولة لتحطيم الرأي العام الذي أخذ يتكون في أوروبا نتيجة لمقولة العائدين من المعارك في الشرق، والذين تحدثوا عن سماحة الإسلام في التعامل مع الغزاة، وعظمة الإسلام في الأداء الحضاري.

الأمر الذي أزعج الكنيسة ودفعها إلى العمل على مقاومة ذلك عن طريق ترجمة القرآن، وتفسيره على النحو الذي يثير التكذيب لرسول الله ﷺ والتشكيك في سلامته¹.

يصرح الأستاذ محمد صالح البندق بالقول: "إن جهود المستشرقين والمستعربين انحصرت بوجه خاص في دراسة القرآن الكريم وباهتمامهم بترجمة هذا الكتاب العظيم من لغته الأصلية أو، فيما بعد، من ترجمته اللاتينية، إلى سائر اللغات الأوروبية والأميركية. وتجمع المراجع العديدة التي أمكننا الاطلاع عليها والتي عالجت هذا الموضوع، تجمع على ما يلي:

أ- أول ترجمة للقرآن الكريم باللغات الأوروبية كانت باللاتينية وقد تمت بإيعاز وإشراف رئيس دير كلوني Clugny بجنوب فرنسا الراهب بطرس المجل (1092-1156م) و هذا اسمه Pierre Le Vénérable وكان ذلك سنة 1143 للميلاد، وعلى يد راهب انجليزي يدعى روبرت الرتيبي Robert De Retina وراهب ألماني يدعى هرمان Hermann (1172م).

ب- جابهت الدوائر الدينية المسيحية هذه الترجمة باتخاذها من مخطوطتها موقفا حازما وهو منعها من الظهور بعد أن اعتبرتها- هذه الدوائر- عاملا مهما من شأنه أن يسهل التعريف بالإسلام وانتشار هذا الدين بدلا من أن تخدم الهدف الذي سعت إليه الكنيسة أصلا وهو محاربة الإسلام كما هو معروف.

¹ عبد الرحمان عميرة، الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق، ص 110.

ت-وبالفعل- وهذه الحقيقة أمر مدهش- فقد ظلت الترجمة المذكورة ضمن محفوظات الدير ولم تصدر إلا في سنة 1543م، أي بعد مئات من السنين على وضعها، وحتى قيض لها الظهور في مدينة بال Bale بسويسرا على يد الطابع ثيودور بيبلياندر Theodore Bibliandes وبعد أن تم طبعها اعتمدت هذه الترجمة لمدة طويلة أساسا للترجمات إلى عدد من اللغات الأوروبية"¹.

تعاقبت و"توالى الترجمات الأوروبية للقرآن بعد ذلك، وظهرت العشرات منها في أوروبا، وكانت هذه الترجمات بالطبع مشوشة ومشوهة، وكان غرضها جميعا هو الإساءة إلى الإسلام، وكما هو متوقع، فإن هذه الترجمات السيئة قد قامت بدور كبير في زيادة حدة العداء بين جماهير النصارى وبين المسلمين والإسلام، ولقد أفرخت بالفعل أدبا أوروبا أو بالأحرى صليبييا معاديا للإسلام، كان هو الذي شكل العقلية الأوروبية المتعصبة، التي لا تزال حتى اليوم، ترى في الإسلام عدوا متربصا، وترى في المسلمين خطرا زاحفا، وشرا يتحتم اقتلعه، وكان من جراء هذا الفهم العشوائي للإسلام، أن طالعنا بعض الأوروبيين بمثل هذه المقالات العشوائية "صراع الحضارات"، "نهاية التاريخ"، "الزحف الأخضر" وأمثال هذه المقولات التي تزيد عالمنا المعاصر تمزقا وتوترا"².

مما تقدم يتبين الطابع الذي ساد الفكر الأوروبي عموما في تعامله مع القرآن ترجمة وفهما، حيث حيل بين الفرد الأوروبي والترجمة المتاحة للقرآن على قصورها، وذلك قصد تجنب التعرف على هذا الدين وكذا التعرف على أصحابه، وفي هذا إقصاء ضمني للفرد المسلم حتى لا يتعرف عليه الغير ويتفاعل معه.

¹ محمد صالح البندق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، ص 95-96.

² محمد أبو ليلة، القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي، ص 385.

إضافة إلى ذلك "قام المستشرقون منذ القرن الثاني عشر وحتى اليوم بإعداد العديد من ترجمات القرآن إلى اللغات الأوروبية كافة، وقد مهدوا لترجماتهم بمقدمات وضعوا فيها تصوراتهم عن الإسلام، وقد أعطت القارئ صورة غير صحيحة عن الوحي المنزل على رسول الله ﷺ وعن القرآن نفسه، وإذ ركزت على أن تنفي كون القرآن منزلاً من الله، كما أنها وضعت القرآن كله موضع أخذ غير منظم لبعض ما ورد في التوراة والإنجيل، ويزيد ذلك اضطراباً أنه أضيف إليه بعض الأساطير العربية السائدة¹.

ترجمات كثيرة تلك التي أنتجها المستشرقون، وفيما يلي ذكر لبعضها مرفقة برأي الباحث إبراهيم عوض فيها.

1.2 ترجمة سافاري Savary.

يقول الباحث إبراهيم عوض: "لا يسعني إلا الاعتراف بأن أسلوب هذه الترجمة سلس وأنيق، ولكن هذه السلاسة والأناقة لا يصاحبها سلامة الفهم ولا الدقة اللازمة في ترجمة كتاب كالقرآن، هو الكتاب المقدس لأتباع أحد الأديان الكبرى في العالم، إذ المترجم في كثير جداً من الأحيان يكتفي بأداء المعنى أداء إجمالياً، فينقل إلى القارئ المعنى الكلي لكنه يغفل كثيراً من التفصيلات التي لا غنى عنها: فمثلاً في ترجمته قوله تعالى: { أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى } (سورة البقرة، الآية: 107) يقول: « Demandez-vous votre apôtre ce que les juifs demandèrent à moïse ? » ومعناه بالعربية "أتسألون رسولكم ما سألته اليهود من موسى؟". ... حذف من ترجمته عبارة "أم تريدون"، وترجم الفعل المبني للمجهول بمبني للمعلوم، وأضاف لفظة "اليهود"، وهي ليست موجودة في النص، كما أنه حول "كما" إلى "ما" وهذا كله يخل، ولا شك، بالمعنى. لقد كان يستطيع أن يحتفظ على الأصل في درج الترجمة، ثم يشرح في الهوامش ما فهمه هو من النص من تلقائه أو مما نقله من كتب المفسرين"².

¹ محمد أمين حسن محمد بني عامر، المستشرقون والقرآن الكريم، ص 383.

² إبراهيم عوض، المستشرقون والقرآن: دراسة لترجمات نفر من المستشرقين الفرنسيين للقرآن وآرائهم فيه، ص 9-10.

2.2 ترجمة مونتييه E.Montet.

يقول الباحث إبراهيم عوض: "أول ما يلفت النظر في هذه الترجمة هو كتابة اسم "محمد" على الغلاف وعلى صفحة العنوان بوصفه مؤلف القرآن، فهل هذا من أمانة العلم في شيء؟ إن هذا المستشرق لا يقر بأن القرآن وحي إلهي، بل هو، في زعمه، من تأليف الرسول عليه السلام، إلا أن هذا لا يصح أن يكون شفيعا له لتسجيل اسم محمد على الغلاف، فكان ينبغي إذن على المترجم أن يحترم هذا الوضع، وله في مقدماته ومداخله وحواشيه منادح يستطيع أن يجادل فيها في المصدر الإلهي للقرآن الكريم، أما ما فعل فهو تضليل للقارئ الأوربي"¹.

3.2 ترجمة ريجي بلاشير Regis Blachere.

يقول الباحث إبراهيم عوض: "أول ما ينبغي ذكره من أخطاء هذا المستشرق أنه لا يحترم أمانة العلم فيما يختص بالنص القرآني الذي بين يديه، فهو يعبث أحيانا بتقسيم الآيات على حسب ما يحلو لهواه مثلما فعل بآية {وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَّ . . . لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (البقرة، الآية: 219)، إذ قسمها إلى آيتين: الأولى تبدأ من أول الآية، وتنتهي بقوله تعالى: {وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ، والثانية من بعد ذلك إلى آخر الآية (ص: 61-62) والسبب؟ لا سبب ...، وهو بهذا ينتهك قداسة الوحي الإلهي وكان خليقا به أن يحافظ على النص، وعنده في الهوامش متسع للتعبير عن كل ما يخالجه من شكوك، وإن كان لا بد من القول هنا إن هذا الانتهاك ليس مقصورا على بلاشير، فقد رأينا من قبله سافاري ومونتييه يفعلان الشيء ذاته، وإن كان لابد من القول أيضا إن بلاشير رغم قيام ما يكتبه على القرآن على أساس أن النبي ﷺ، هو مؤلفه، لم يكتب على غلاف الكتاب مثلهما أن مؤلفه محمد"². (انتهى تعليق الباحث إبراهيم عوض على الترجمات).

¹ إبراهيم عوض، المستشرقون والقرآن، ص 25.

² نفسه، ص 53.

إذا يمكن القول إنهم "انطلقوا من فكرة ترجمة القرآن الكريم صراحة لدحض المبادئ الإسلامية وتفنيدها، وقد فعلوا ذلك بروح رجعية متزمتة سادها معاداة الإسلام، ولنا على ذلك مثال في الترجمة الأسبانية التي وضعها موركيوندور اي أو أوكراتوندو Murguinodo y Ugratondo و عنوانها هكذا بكل صراحة: " القرآن مترجما بأمانة إلى الأسبانية ومعلقا عليه ومدحضا طبقا للعقيدة والتعاليم المقدسة والأخلاق الكاملة للدين الكاثوليكي المقدس الرسولي الروماني " وهي بدون تاريخ ..."¹.

وحسب الباحث محمد أمين حسن فإن قصد الترجمة عند المستشرقين يتجلى في أمرين:

"الأول: التقليل من أهمية دراسة القرآن عند غير المسلمين إذ أنهم إن أرادوا شيئا مما ورد فيه، فإن التوراة والإنجيل هما الأصل الذي أخذ منه (محمد) ﷺ كتابه.

الثاني، إعطاء غير المسلمين صورة غير دقيقة ومعقولة للتعاليم الإسلامية من غير معرفة أصول الإيمان، ولنظرة الإسلام للكون والحياة وصرفهم عن تأثير القرآن في النفوس الإنسانية، من خلال إعجازه البياني الذي تحدى الله به الإنس والجن"².

يمكن القول أيضا: "إن الفهم الاستشراقي للقرآن قد يختلف أحيانا عن فهمنا له، لأسباب متأصلة، تملها ظروف نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية، وقد تملها نزعات عدائية حيناً، وتبشيرية حيناً آخر، وهنا يكمن الخطر المتفاقم إذ قد يشذ المستشرق في هذه الأحوال عن الصواب، وهنا يعامل النص العلمي بمنظور اليقظة والحيلة والحذر إذ قد يتجنى على العلم والحق"³.

التجني الذي قد يصدر عن المستشرق في حق النص القرآني، يكون في كثير من الأحيان نابعا من زاوية فهمه ورؤيته لهذا النص، ففهمه، "قد يختلف أحيانا عن فهمنا له، لهما علمية وأكاديمية تعتبر أجدى نفعاً عندهم وأكثر تحصيلا مما هي عندنا.

¹ محمد صالح البندق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، ص 103.

² محمد أمين حسن محمد بني عامر، المستشرقون والقرآن الكريم، ص 383.

³ محمد حسين علي الصغير، المستشرقون والدراسات القرآنية، ص 101.

وقد يختلف أحيانا عن فهمنا له لأنهم لا ينظرون إلى القرآن نظرة تقديس نظرتهم إلى التوراة والإنجيل، فيكون التقصير مفروضا من داخل النفس الاستشراقية.

وقد يختلف أحيانا عن فهمنا له لأنهم يرون أن القرآن كتاب ثقافي حضاري يدرس من هذا الجانب، ولا يعالج منه ما له صلة بالوحي أو الغيب، وإذا عولج هذا الجانب فقد يعالج معالجة من لا إيمان له به، ولا ركون إليه، وهي قضية أخرى¹.

لهذا كله عُدَّ "الاستشراق ظاهرة منظمة، تمثل جهدا دؤوبا من الغرب في محاولته فهم الحضارة الإسلامية في الشرق، وقد رأينا أن هذه المحاولة أخذت أبعادا يمكن تلخيصها بالبعد العسكري، والبعد الثقافي، وأما البعد الثقافي فيتمثل في الاتجاه التنصيري، والاتجاه العلماني الذي أخذ بدوره بعدين: البعد العلماني الذي عبر عن نفسه بمحاولة تحييد الدين عن الحياة في النمط الأوروبي وحاول من جانب الشرق أن يعيد تشكيل حياة الشرقيين على النمط الأوروبي، والبعد الإلحادي الذي تجاوز في مطلبه تحييد الدين إلى حربه ومعاداته، وقد حاول أن يعيد تشكيل الشرق تشكيلا لا أثر للدين فيه"².

مجمل ما تطرقت إليه أعلاه يجمعه تعريف الأستاذ حسن حبنكة الميداني للاستشراق حيث قال: "تعبير أطلقه غير الشرقيين على الدراسات المتعلقة بالشرقيين: (شعوبهم، وتاريخهم، وأديانهم، ولغاتهم، وأوضاعهم الاجتماعية، وبلدانهم، وسائر أراضهم وما فيها من كنوز وخيرات، وحضارتهم، وكل ما يتعلق بهم).

وكان هدف الغربيين من هذا الإطلاق العام الذي يشمل كل الشرق والشرقيين، مسلمين أو غير مسلمين، أن يكون غطاء للهدف الأساسي، الذي هو دراسة كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين، لخدمة أغراض التبشير من جهة، وأغراض الاستعمار الغربي لبلدان المسلمين من جهة أخرى، ثم لإعداد الدراسات اللازمة لمحاربة الإسلام وتحطيم الأمة الإسلامية، وتجزئتها، وتفتيت وحدتها.

¹ محمد حسين علي الصغير، المستشرقون والدراسات القرآنية، ص 101-102.

² اسماعيل أحمد عاميرة، المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية: بحث عن الجذور التاريخية للظاهرة الاستشراقية، ص 64.

ثم توسعت الدراسات الاستشراقية بعد توسع الاستعمار الغربي في الشرق، فتناولت دراسة جميع ديانات الشرق، وعاداته، وحضاراته، وجغرافيته، وتقاليده، ولغاته، وكل ما يتعلق به"¹.

في السياق ذاته يزيد إدوارد سعيد في استجلاء المعنى الفلسفي الدقيق للاستشراق بقوله: "ليس الاستشراق مجرد موضوع أو مجال سياسي يتجلى بصورة سلبية في الثقافة أو البحث العلمي أو المؤسسات، وليس أيضا مجموعة كبيرة غير مترابطة من النصوص المكتوبة عن الشرق، بل وليس تمثيلا وتعبيرا عن مؤامرة إمبريالية "غربية" دنيئة تهدف إلى إخضاع العالم "الشرقي". لا بل إنه الوعي الجغرافي السياسي المبتوث في النصوص العلمية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية واللغوية، وهو تطوير تفصيلي ليس فقط للتمييز الجغرافي الأساسي (الذي يقول إن العالم ينقسم إلى نصفين غير متكافئين هما الشرق والغرب) بل أيضا لسلسلة كاملة من "المصالح" التي يستعين في تحقيقها والحفاظ عليها بشتى الوسائل مثل نتائج البحوث العلمية، وإعادة البناء اللغوي القديم، والتحليل النفسي، ووصف ظواهر الطبيعة والمجتمعات، وهو في ذاته إرادة معينة أو نية معينة، أي إنه ليس مجرد تعبير عن الإرادة والنية، لتفهم ما يبدو بوضوح عالما مختلفا (أو عالما بديلا وجديدا) وللسيطرة عليه في بعض الأحيان والتلاعب به وضمه إليه"².

بهذا أكون قد أوضحت بعضا من العلاقة بين الاستشراق كتيار والقرآن الكريم باعتباره مصدرا يستقي منه الفرد المسلم تصوره عن الحياة والكون، وفي حجب هذا المصدر عن الغير من خلال الترجمة القاصرة حجب لكل ما من شأنه أن يحقق التواصل والحوار.

سأحاول من خلال المبحث الآتي أن أتطرق إلى الأسس والمنطلقات التي من خلالها يمكن النفاذ إلى أرضية مشتركة يكون فيها للحوار والتعايش قصب السبق، ويكون فيها للمسلمين عزتهم الرسالية ويحيوا مجدهم الحضاري من جديد.

¹ عبد الرحمان حسن حنكة الميداني،، أجنحة المكر الثلاث وخوافيها: التبشير الاستشراق الاستعمار، ص 120.

² إدوارد سعيد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ص 58.

3. حوار الحضارات وتجاوز القطيعة الإستمولوجية.

تعددت السبل والمساعي الداعية إلى ضرورة القطع مع كل أشكال الضبابية والغموض في فهم الآخر، وتصاعدت الدعوات إلى تصحيح المغالطات والافتراءات العلمية في حق الشعوب والأديان، فإذا كانت الترجمة الاستشراقية لمعاني القرآن قد شوهت صورة الفرد المسلم في المخيال الشعبي والوجداني للإنسان الغربي، فقد صار لزاما مواجهة ذلك بالدعوة إلى دراسة القرآن بعيدا عن أعين الأحكام الجاهزة للمستشرقين، وإنتاج ترجمات لمعانيه توضح جوهره الحقيقي ومنطقه الحضاري المتكامل، وهذا لن يتأتى إلا ضمن أرضية حوارية بين مختلف الثقافات والحضارات.

يرى روجيه غارودي أن القرن العشرين شكل بداية طريق لتجاوز القطيعة بين الثقافات حيث يقول: "إن حوار الحضارات، قد فصمته ستة قرون من الاستعمار وازدراء الثقافات اللأغربية، لم يستأنف إلا في القرن العشرين، ولا ريب في أن رسالة القرن الحادي والعشرين تتمثل في القضاء على العوائق الأخيرة، وفي المضي إلى النهاية في تحقيق فن عالمي، وثقافة عالمية"¹.

دعوة حوار للحضارات، يجب أن تكون منصفة ومكرسة للمساواة بين جميع الأطراف، و"ألا ينظر إليها كإجراء دفاعي أو وقائي شهره البعض -خاصة في العالم الإسلامي- في مواجهة دعوات صدام الحضارات والتحريض في الغرب خاصة على حضارات أخرى، في مقدمتها الحضارة الإسلامية، بل يجب النظر إلى هذه الدعوة على اعتبار أنها نقطة تعبئة وانطلاق لحشد كافة طاقات الإنسانية للاتفاق على حد أدنى مشترك على أسس التفاهم والاحترام المتبادل بما يمهّد لإيجاد حلول لما تواجهه البشرية من تحديات في وقتنا الراهن تهدد بقاءها واستمرارها"².

¹ روجيه غارودي، في سبيل حوارات الحضارات، ص 137.

² وليد محمود عبد الناصر، حوار الحضارات، ص 19.

يعد فهم الآخر فهما صحيحا، لبنة أساسية في صرح بناء هذا النمط من الحوار البناء، "وقد لعبت الترجمة وما تزال دورا عظيما في حوار الثقافات والحضارات وتلاقحها، وهي عامل رئيس لنهوض الحضارات، فبواسطتها يطلع الناس في بلدانهم الأصلية على حياة البلدان الأخرى، وتاريخها، وحضارتها وحصيلتها من المعارف والعلوم والفكر، فتنقل هذه العلوم والمعارف من بلد إلى آخر ومن ثقافة إلى أخرى، ويحدث حوار تتفهم من خلاله ثقافة ما ثقافة أخرى، فيحدث التبادل والاعتناء ويتم النهوض والتطور، وقد يجلب هذا تفاهم شعوب الحضارتين"¹.

أضحى القرن الواحد والعشرون محكا حقيقيا أمام العالم لتجاوز الإكراهات التي تفرزها الصراعات الدولية، فمستهلته انحدر إلينا ببداية حرب العرق وما خلفته من أ�اديد في ذهن الفرد المسلم اتجاه الغرب، إضافة إلى مركزية القضية الفلسطينية وما تشكله من أولوية في فكر ووجدان المسلمين، زيادة على العديد من مخلفات القضايا والنزاعات التي انتهى على وقعها القرن العشرون، فإذا كان والحالة هذه أن العالم مثخن بالإكراهات والصراعات، كان لزاما أن يبحث العالم عن سبل تقيّه مزيدا من استنزاف ثرواته المادية والمعنوية، وتنقص من فعالية الإنسان في سعيه لبناء حضارة أخلاقية.

لا سبيل للعالم الإسلامي إلى بناء علاقات ودية مع الحضارة الغربية، دون الرجوع إلى تراثه والاقتباس من رصيده الحضاري، فهذا التراث زاخر بأنساق معرفية وسياقات تعليمية تدعو إلى الحوار والتواصل، ومن معين هذا التراث كذلك نستشف كون المسلمين كانوا سباقين إلى فعل الترجمة كآلية للتعرف على الآخر والإفادة من علومه، ولا أدل على ذلك من حركة الترجمة لمختلف علوم الحضارة اليونانية -الترجمات التي ستكون فيما بعد جسر الغرب نحو بناء حضارته-، ولا تخفى الحمولة الأخلاقية والعزة والريادة التي يكتنزها هذا التراث، وهي دافع للمجتمع المسلم أفرادا ودولا لبناء رؤية عن الذات محملة بالاحترام اتجاه الآخر، وفي نفس الوقت ساعية إلى تبوؤ مكانتها بين الأمم.

¹لواتي فاطمة، الترجمة وحوار الثقافات، ص 137.

خاتمة:

ختاماً يمكن القول إن الترجمة آلية من آليات الوصل بين الحضارات على اختلاف أنماط عيشها وتنوع أنساقها الدينية، لكن على فرط أهميتها ودورها يبقى حيز كبير منها ذو حمولة تضليلية، ويقصد هنا بالذات حركة ترجمة معاني القرآن من طرف المستشرقين الذين لم يألوا جهداً في الانكباب على القرآن الكريم ترجمة ودراسة، الشيء الذي أنتج كمّاً هائلاً من الأعمال تبعاً لتنوع المدارس والبلدان، جلها أعطت انطباعات سيئة عن الفرد المسلم وأسهمت في تكوين صورة نمطية غير صحيحة، وبذلك اتسعت الهوة بين الحضارة الأوروبية ونظيرتها الإسلامية، وهذا التباعد ينسجم مع الطابع العام الذي لأجله ظهر الاستشراق، وإن كنا في صدد الحديث عن التعايش والحوار بين الثقافات وجب العمل على إيصال الصورة الصحيحة عن الأفراد والمجتمعات، وذلك لن يتأتى إلا بتوظيف الترجمة توظيفا سليماً بعيداً عن مضايق التحريف والعداء.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

كتب عامة:

- 1- إبراهيم عوض، المستشرقون والقرآن: دراسة لترجمات نفر من المستشرقين الفرنسيين للقرآن وآراءهم فيه، ط.1. مكتبة زهراء الشرق، 1423/2003.
- 2- أحمد نصري، آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم - دراسة نقدية-، ط.1. دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، 2009.
- 3- إدوارد سعيد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ط.1. ترجمة: محمد عناني. القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2006.
- 4- إسماعيل أحمد عمارة، المستشرقون وتاريخ صلهم بالعربية بحث عن الجذور التاريخية للظاهرة الاستشراقية، ط.2. عمان-الأردن: دار حنين العبدلي، 1992/1412.
- 5- روجيه غارودي، في سبيل حوارات الحضارات، ترجمة: عادل العوّا، ط.4، بيروت - لبنان، عوידات للنشر والطباعة، 1999.
- 6- عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاث وخوافيها: التبشير الاستشراق الاستعمار دراسة وتحليل وتوجيه، ط.8. دمشق: دار القلم، 2000/1420.
- 7- عبد الرحمان عميرة، الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق. بيروت: دار الجيل، د.ت.
- 8- محمد أمين حسن محمد بني عامر، المستشرقون والقرآن الكريم، ط.1. الأردن: دار الأمل للنشر والتوزيع، 2004.
- 9- محمد حسين علي الصغير، المستشرقون والدراسات القرآنية، ط.1. بيروت-لبنان: دار المؤرخ العربي، 1999/1420.
- 10- محمد صالح البندق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، ط.1. بيروت: دار الافاق الجديدة، 1980/1400.
- 11- محمد محمد أبو ليلة، القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي، ط.1. دار النشر للجامعات، 2002/1423.
- 12- مشتاق بشير الغزالي، القرآن الكريم في دراسات المستشرقين دراسة في تاريخ القرآن: نزوله وتدوينه وجمعه، ط.1. دار النفائس، 2008/1429.
- 13- وليد محمود عبد الناصر، حوار الحضارات، ط.1، مصر، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2007.

مجلات:

- 1- لواتي فاطمة، الترجمة وحوار الثقافات، مجلة جسور المعرفة، العدد الثامن، 2016.